محبّة الله أساس محبّة القريب
قراءة في نصّ الرجل الغنيّ
مر ١٠: ١٧-٢٢ والنصوص الموازية

الخوري جان عزّام
دكتور في العلوم البيبليّة

مقدّمة

يؤكّد القدّيس يوحنّا في رسالته الأولى بأنّ محبّة الله هي من محبّة القريب: "إذا قال أحد إنّي أحبّ الله وهو يبغض أخاه، كان كاذبا، لأنّ الذي لا يحبّ أخاه وهو يراه لا يستطيع أن يحبّ الله وهو لا يراه. ولنا منه هذه الوصيّة، أنّ من يحبّ الله يحبّ أيضًا أخاه" (١ يو ٤: ٢٠-٢١)؛ أمّا عن كيفيّة التعبير عن هذا الحبّ، فالرسول نفسه يؤكّد بأنّ "من كانت له خيرات الدنيا، ورأى بأخيه حاجة، فأغلق أحشاءه دون أخيه، فكيف تقيم فيه محبّة الله؟ (١ يو ٣: ١٧). أمّا عن نوعيّة هذا الحبّ، فالرسول سبق وأوضح أنّه يجب أن يشبه حبّ المسيح لنا، لأنّنا "بهذا عرفنا المحبّة، أنّ المسيح بذل نفسه في سبيلنا، فعلينا نحن أيضًا أن نبذل أنفسنا في سبيل إخوتنا" (١ يو ٣: ١٦).

هذه الخلاصة المسيحيّة لحبّ الله والقريب عبّرتْ عنها الأناجيل ورسائل بولس وغيرها بتعابير عديدة ومتنوّعة، كما أنّ يسوع نفسه يختصر وصايا العهد القديم كلّها بوصيتّين: "الوصيّة الأولى هي: إسمع يا إسرائيل، الربّ إلهنا ربّ واحد، فأحبب الربّ إلهك من كلّ قلبك وكلّ نفسك وكلّ فكرك وكلّ قوّتك؛ والثانية هي هذه: أحبب قريبك كنفسك؛ ولا وصيّة أخرى أعظم من هاتين الوصيّتين" (مر ١٢: ٢٨-٣١).

العلاقة الوثيقة والمتفاعلة بين محبّة الله والقريب تبدو في أساس نصّ الرجل الغنيّ، الذي يطلب منه المسيح أن يبيع كلّ ما له ويعطيه للفقراء ويتبعه! مع ذلك، فالمسيح في حواره والشابّ الراغب في ميراث الحياة الأبديّة، يترك لنا مفاجأة هامّة لنكتشفها مع محاوره: لنرَ ذلك.

١- بنية النصّ

يتألّف هذا النصّ من ستّ آيات، وبنية بسيطة؛ فهي تقوم على الحوار في جولتين، مع مقدّمة وخاتمة:

- يُقدَّم الرجل أوّلاً بكونه أسرع وجثا أمام يسوع (آ ١٧أ)، والخاتمة تلاحظ ذهابه حزينًا بعيدًا عن يسوع (آ ٢٢). الجولة الأولى، في آ ١٧ب-١٨، يبدأها الرجل الذي أتى إليه ساعيًا لميراث الحياة الأبديّة، ولكنّ الحوار يتركّز، بمبادرة يسوع، على موضوع "الصالح": يسوع المعلّم الصالح، والله وحده الصالح.

- الجولة الثانية، في آ ١٩-٢١، تبدأ بمبادرة يسوع في طرح موضوع الوصايا، وجواب الرجل بأنّه حفظها منذ صباه، وجواب يسوع النهائيّ في دعوة الرجل لبيع ما له وإعطائه للفقراء، واقتناء كنز في السماء واتّباعه.

- هناك تواز متكامل أو متعارض بين الأقسام الأربعة: فهناك نوع من التضمين المتعارض بين مجيء الرجل الحماسيّ إلى يسوع، في آ ١٧، وذهابه حزينًا في آ ٢٢، وتضمين متعارض أيضًا بين "ميراث الحياة الأبديّة" الذي يطلبه الرجل في آ ١٧، و"المقتنيات الكثيرة" التي له ولا يتخلّى عنها، في آ ٢٢. بينما يوضح يسوع في جوابه أنّ الحياة الأبديّة هي في اقتناء كنز في السماء (آ ٢١).

- ولكن هناك أيضًا ثلاث حركات تشكّل نوعًا من البنية المحوريّة في النصّ كلّه؛ فالرجل يأتي إلى يسوع (آ ١٧)، ثم يذهب عن يسوع (آ ٢٢)، وفي هاتين الحركتين المتناقضتين حركة مطلوبة لم تتحقّق: "تعال اتبعني" (آ ٢١).

– لا يمكننا الكلام إذًا عن بنية بلاغيّة بل عن ديناميّة حواريّة متتابعة ومتفاعلة في الوقت عينه، موضوعها الحياة الأبديّة، والجواب الأوّل عنها: بيع المقتنيات لتحقيق الوصايا، واقتناء كنز في السماء، والجواب النهائيّ: تعال اتبعني.

٢– بحث لغويّ ودلاليّ وتفسيريّ

يبدأ النصّ في آ ١٧ بتعبير "وخرج يسوع إلى الطريق"، الذي يذكّرنا بحياة التجوال التي عاشها يسوع وتلاميذه فترة تبشيره في المدن والقرى، وهذا ما يلاقي صدى في دعوته الشابّ لاتّباعه في آ ٢١. خروج يسوع في الطريق هنا، يشبه بداية رحلة يسوع إلى أورشليم في لو ٩: ٥١، وهي بداية القسم الثاني الكبير من حياة يسوع العلنيّة والتبشيريّة، والتي يصفها الإنجيليّ لوقا بأنّها نوع من تصميم في الاتّجاه نحو ساعة ارتفاعه، ساعة موته وقيامته في أورشليم، وكأنّي بهذا الشاب يأتي لملاقاة يسوع في الوقت الذي يُزمع يسوع أن يبدأ رحلة تحقيق ملكوت الله، من خلال طاعته الكاملة للآب، وتحقيق الوصيّة الأولى بأكملها، إذ سيحبّ الله بكلّ قلبه المطعون، وبكلّ عقله الذي وخزه إكليل الشوك، وبكلّ قواه، قوى يديه ورجليه المسمّرة على الصليب. وهناك أيضًا، سيحقّق يسوع الوصيّة الثانية، التي تُشبه الأولى، إذ سيحبّ قريبه، صديقًا وعدوًّا، كحبّه لنفسه، بل كما قال هو، بذاك الحبّ الأعظم الذي يقوم على بذل نفسه في سبيل أحبّائه. إذًا المسيح المتّحد بالله الصالح ومصدر الصلاح، لا فقط بطبيعته الإلهيّة غير المعروفة للناس، ولكن أيضًا بطبيعته البشريّة الظاهرة للعيان، هذا المسيح الذي عاش جوهر الوصايا كلّها، والذي سيحقّقها بكمالها، داخلاً هو نفسه في الحياة الأبديّة، وجاعلاً تلك الحياة الأبديّة ميراثًا حقيقيًّا لكلّ من يتبعونه، يلتقيه ذاك الرجل، ويسأله: "أيّها المعلّم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبديّة؟".

منذ بداية الكلام، نجد تعابير مركّزة على "ما هو صالح"، agaqoj، مرّة كصفة ليسوع المعلّم على لسان الرجل الغنيّ، ومرّة كصفة مطلقة على لسان

يسوع، وأيضًا كصفة لا يمكن تلبيقها إلاّ لله، على لسان يسوع أيضًا. ولكن، وفي الإطار اللغويّ عينه، يمكننا اعتبار رغبة الشابّ في ميراث الحياة الأبديّة، zwh aiwnion، رغبة في الخيرات الأبديّة، والسعادة، والصلاح، وهي كلّها في موضوعِ ما هو صالحٌ نفسِه، أي ما هو خيّر، لأنّ الصلاح الذي هو الله، ومن الله، هو نفسه الحياة الأبديّة، التي هي حياة الله وعطيّته. ولقد استبدل متّى صفة "الصالح" التي يطلقها الشاب على يسوع، وحوّلها إلى نوعيّة الأعمال التي يرغب الرجل في القيام بها: "يا معلّم، أيّ صالح أعمل لأنال الحياة الأبديّة؟"(١). وبهذا المعنى فإنّ الصالح هو الخير وما هو موافق لشريعة الله الصالحة، كما يقول المزمور: "أوامرك ميراثي إلى الأبد، لأنّها تعطي الفرح لقلبي". من جهة ثانية، ترتبط كلمة "ميراث" بالخيرات الموعودة لشعب إسرائيل في الوعد الإلهيّ، الذي هو أساس العهد؛ فالأرض، التي هي صورة مسبّقة لملكوت الله والحياة الأبديّة، هي ميراث الله لشعبه السائر في طرقه والحافظ لشريعته. وكلّ خيرات الأرض التي تدرّ لبنًا وعسلاً، ليست من تعب إسرائيل، بل هي عطيّة مجانيّة، ميراث من الله لمن يعبدونه في الأرض ويحفظون وصاياه: "فاحرصوا أن تعملوا كما أمركم الربّ إلهكم، ولا تحيدوا يمنة أو يُسرة، بل في كلّ الطريق الذي أوصاكم به الربّ إلهكم تسيرون، لكي تحيوا وتصيبوا خيرًا وتطيلوا أيّامكم في الأرض التي سترثونها" (تث ٥: ٣٢–٣٣)؛ "وإذا أدخلك الربّ إلهك إلى الأرض التي أقسم لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يُعطيك إيّاها، مدنًا عظيمة حسنة لم تبنها، وبيوتًا مملوءة كلّ خير لم تملأها،... فاحذر أن تنسى الربّ...، بل الربّ إلهك تتقّي، وإيّاه تعبد، وباسمه تحلف" (تث ٦: ١٠–١٣).

في مطلق الأحوال، جواب يسوع عن أنّ "لا صالح إلاّ واحد وهو الله"، يبدو

(١) يعتقد بعض المفسّرين بأنّ متّى قد تحاشى الإبقاء على ما بدا وكأنّه إنكار يسوع لألوهته، إذ قال "ليس صالح إلاّ الله"، ويبدو أنّ النصّ، كما ورد في مرقس ولوقا، أعطى حجّة للذين كانوا ينكرون ألوهة المسيح، أو على الأقلّ مساواته الإلهيّة لله الآب، ولكن لا يبدو لي أنّ هذا التفسير مؤكّد، لأنّ متّى يميل بالأحرى إلى التعليم في خطّ الأنبياء الذين تكلّموا كثيرًا عن ارتباط ميراث الحياة بالأعمال الصالحة، أي الأعمال المرتكزة على صلاح الله، أي التوراة.

ذا بُعْدَين ممكنَين: البعد الأوّل، من خلال نصّ مرقس ولوقا، هو أنّ المسيح يسأل الرجل: "هل تؤمن حقًّا" أنّني الله، لتدعوني بهذه الصفة؟ هل تريد حقًّا أن تطيع ما أقوله لك، لأنّك تؤمن أنّني الله، أو على الأقلّ أنّني أتكلّم باسم الله؟ أمّا البعد الثاني، الذي يبدو أقرب إلى الفهم الموضوعيّ التاريخيّ للحدث، والذي يعبّر عنه نصّ متّى، فهو أنّ المسيح أراد أن يُذكّر الرجل الغنيّ بأنّ أيّ صلاح وخير وسعادة لا يمكن اعتبارها أشياء يرثها الإنسان أو يحصل عليها: إنّها الله نفسه! فمن يرغب في ما هو صالح، عليه أن يرغب في الله نفسه فوق كلّ الأشياء. وقد ربط النبيّ إرميا بين عطيّة الشريعة الجديدة، أو العهد الجديد الذي سيعطيه الله لشعبه، وثمار هذه العطيّة التي هي معرفة الله والطاعة التامّة له" (إر ٣١: ٣١–٣٤)؛ وقد جاء في سفر الحكمة أيضًا: "أمّا أنت، يا إلهنا، فإنّك صالح صادق طويل الأناة ومدبّر كلّ شيء بالرحمة...؛ فإنّ معرفتك هي البرّ الكامل، والعلم بقدرتك هو الخلود" (حك ١٥: ١–٣)، وهذا ما سيلاقي صداه في ما سيؤكّده يوحنّا لاحقًا على لسان يسوع في صلاته الكهنوتيّة: "الحياة الأبديّة هي أن يعرفوك أنت الإله الواحد الحقّ، ويعرفوا الذي أرسلته يسوع المسيح" (يو ١٧: ٣). كلّ هذا يقودنا إلى جوهر الحوار بين يسوع والرجل الغنيّ؛ فبينما يبحث الأوّل عن الحياة الأبديّة بمثابة خيرات معيّنة يرثها أو ينالها مقابل أعمال صالحة يقوم بها، أو وصفة سحريّة يعطيه إيّاها "معلّم صالح"، يقوده يسوع منذ البداية إلى البحث عن الحياة الأبديّة بكونها الله نفسه!

من هنا ننتقل إلى القسم الثاني للحديث، أي دعوة المسيح للرجل بأن يحفظ الوصايا. هذا التطوّر في الحديث يبدو طبيعيّا جدًّا ومتناغمًا مع ما سبق، لأنّ ميراث الأرض، والملكوت، والحياة الأبديّة، مرتبطة ارتباطًا تامًّا بالعهد الذي يقوم على حفظ وصايا الله، التي كما قلنا، يمكن اختصارها بالوصيّة العظمى المعبّر عنها في "إسمع يا إسرائيل" (שְׁמַע יִשְׂרָאֵל، "شمّعْ يِسْرَئِلْ"). مع ذلك، فيسوع يبدأ تعداد الوصايا من الخامسة حتّى الثامنة: "لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد بالزور"، ثمّ يزيد واحدة قد تكون اختصارًا للوصيّتين التاسعة والعاشرة:

"لا تظلم"؛ وأخيرًا يعود إلى الوصيّة الرابعة: "أكرم أباك وأمّك". لا نتوقّف عند كلّ وصيّة، وهي تختصر ما يتعلّق بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، بما فيه إكرام الأب والأمّ، وهي الوصيّة التي تأتي مباشرة بعد الوصايا الأولى المتعلّقة بالعلاقة مع الله، والتي تربط بطريقة ما بين محبّة الله والقريب، لما في صورة الأبوين من إشعاع لمحبّة الله الخالق والمربّي والمرافق للإنسان في طريق حياته، وما في صورتهما أيضًا من تعبير عن القريب الواجب محبّته وإكرامه. وكما يقول القدّيس بولس، في الرسالة إلى أهل أفسس، وصيّة إكرام الأب والأمّ، هي أوّل وصيّة مرتبطة بوعد: "لتنال خيرًا، ويطول عمرك في الأرض" (أف ٦: ٢–٣). يستوقفنا طبعًا ذكر المسيح لوصيّة غير واردة حرفيًّا في مجموعة الوصايا، ومع التفسير الذي سبق وأعطيناه عن علاقتها بالوصيّتين التاسعة والعاشرة، يمكننا الإضافة هنا بأنّ فعل "ظلم" هو فعل نبويّ بامتياز، ونجد صداه عاليًا في سفر التثنية حيث يقول: "لا تظلم أجيرًا مسكينًا أو فقيرًا من إخوتك أو من النزلاء الذين في أرضك، في مدنك، بل ادفع إليه أجرته في يومه، ولا تغب عليها الشمس، لأنّه مسكين وإليها يطمح، لئلاّ يصرخ عليك إلى الربّ، فتكون عليك خطيئة" (تث ٢٤: ١٤–١٥؛ رج أيضًا سي ٣٤: ٢١–٢٢).

أمّا جواب الرجل، فهو تعبير عن أمرين: الأوّل، أنّه حاول بصدق أن يحفظ الوصايا كما تعلّم حفظها: "هذه كلّها حفظتها منذ صباي"، والثاني هو أنّ هناك مشكلة ما في حفظه لتلك الوصايا؛ فكما قلنا سابقًا، الوعد بالحياة الأبديّة والملكوت مرتبط في لاهوت العهد بحفظ الوصايا والعمل بها؛ فَعَمَّا يبحث هذا الشابّ، وماذا ينقصه لكي يأتي ويطلب إلى من يعتبره معلّمًا صالحًا أن ينصحه بالعمل به حتّى يرث الحياة الأبديّة؟

كما قلنا أيضًا سابقًا، الحياة الأبديّة هي السعادة والتمتّع بملء خيرات الله؛ فإذا كان هذا الشابّ، مع حفظه الوصايا، حسب اعتقاده، ما زال يبحث عن هذه الحياة وعن هذه الخيرات والسعادة، فهذا يعني أنّها تنقصه، وأنّه لا يحفظ

الوصايا كما يعتقد.

لقد تعمّد يسوع، كما رأينا، ألاّ يذكر الوصايا الثلاث الأولى، التي هي أساس الوصايا كلّها، والتي تتعلّق بوحدانيّة الله، وتمجيد اسمه كمخلّص وحيد، كما ظهر في سيناء وفي كلّ التاريخ، "أنا هو الذي هو אֶהְיֶה אֲשֶׁר אֶהְיֶה. إنّه الخالق الوحيد ولا إله سواه، وهو إله التاريخ والمخلّص الوحيد، وكلّ خير يأتي منه. ألم يختصر إسرائيل نفسه كلّ الوصايا، كما قلنا، بهذه: "إسمع يا إسرائيل، إنّ الربّ إلهنا هو ربّ واحد، فأحبب الربّ من كلّ قلبك، وكلّ ذهنك وكلّ قواك"؟ فإذا كانت محبّة القلب هي في الاعتراف به ربًّا واحدًا ومحبّته وخدمته، وإذا كانت محبّته بكلّ الذهن هي إنكار أيّ إله آخر سواه، والطاعة لوصاياه وكلمته المحيية، وعدم الوقوع في خطيئة الإنسان الأوّل بادّعاء تقرير الخير والشرّ دون الرجوع إليه، فما هي محبّته بكلّ القوى سوى الإيمان بأنّ كلّ ما تنتجه اليدان وتسعى إليه الرجلان في العمل والتعب هو عطيّة منه ومشاركة في خيراته؟

هذا الرجل كان مخدوعًا لأنّه حوّل وصايا الله إلى تعاليم أخلاقيّة، في عدم القتل والزنى والسرقة، وحتّى في تحاشي ظلم القريب، ولكنّه لم يعرف الربّ بتلك المعرفة الجديدة التي تجعله قبل كلّ الخيرات التي هو مصدرها وفوقها وبعدها.

"المسيح حدّق به وأحبّه" قبل أن يجيبه. إنّه التحديق نفسه الذي حدّق به يسوع إلى كلّ الذين أحبّهم وشفاهم، وآخرهم بطرس الذي، كما يذكّر الإنجيليّ لوقا، "حدّق إليه يسوع" بعد أن أنكره ثلاث مرّات (رج لو ٢٢: ٦١). هذا التحديق هو تحديق الحبّ بإنسان مخدوع، والذي سيقود بطرس إلى اكتشاف الخدعة التي وقع فيها في خوفه على حياته إذا اعترف بربّ الحياة، وإلى البكاء والتوبة، ومبادلة الحبّ بحبّ كبير، كما سيعلن ذلك في لقاء الربّ به بعد قيامته (يو ٢١: ١٥–١٧). هنا أيضًا حدّق يسوع بهذا الرجل

المخدوع ببرارته، وأحبّه.

يعبّر فعل agapaw عادة عن الاحترام والتقدير، وعن الاستقبال الطيّب للشخص المقابل[٢]. ولكنّ فعل حبّ يسوع هنا، هو فعل الحبّ نفسُه الذي يطلبه الـ"شمَعْ يِسْرَئِلْ" من المؤمن تجاه الله. هذا الفعل agapaw يستعمله مرقس هنا وفي الفصل ١٢ فقط، حيث يقترب أحد الكتبة إلى يسوع ويسأله عن أولى الوصايا، وحيث يرد هذا الفعل ٤ مرّات عن محبّة الله ومحبّة القريب. يسوع، الذي كما قلنا، يحقّق الـ"شمَعْ" في كلّ حياته، ويتمّم بالكامل محبّة الله ومحبّة القريب على الصليب، يحبّ هذا الرجل الحبَّ الكامل نفسه، ويرغب، مدفوعًا بهذا الحبّ عينه، إلى أن يُخرجه من الخدعة؛ فكيف يفعل ذلك؟

الأمر بسيط! إن كان هذا الرجل يحقّق الوصايا، من الرابعة إلى العاشرة، كما يقول، أفليست هذه كلّها مبنيّة على الوصيّة الأولى وما يتبعها من محبّة الله فوق كلّ شيء آخر؟ إذًا، إن كنت تحقّق الوصايا التي تخصّ القريب، كما تقول، فينقصك أن تتأكّد من صحّة هذا الأمر بأن تحقّق الوصايا التي تخصّ الله، الذي هو الأساس: "واحدة تنقصك: إذهب وبع كلّ ما لك، وأعطِ الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني".

لنلاحظ، أوّلاً، التوارد اللفظيّ بين "واحد هو الصالح" و"واحدة تنقصك". الموضوع كلّه هو في هذه الوحدانيّة الأساسيّة والجوهريّة التي منها ينبع كلّ الصلاح وكلّ الخيرات المعبّر عنها هنا بالله الصالح، وبالحياة الأبديّة التي يرغب الرجل فيها. "واحدة تنقصك"، وهي الوحيدة: أن تحفظ الوصيّة الأولى والأساس، أي أن تحبّ هذا الخير الأعظم والأوحد فوق كلّ الخيرات الأخرى، التي بدونه لا قيمة لها.

لقد فُسّر هذا الكلام مرّات عديدة بأنّه موجّه من يسوع إلى إنسان مميّز

(2) Cf. C. Spicq, *Agapé dans le Nouveau Testament*, t. I, coll. Études bibliques, Paris, Gabalda, 1959, p. 81-84.

وذي دعوة خاصّة، ألا وهي اتّباع يسوع. وقد اعتبر البعض أن تطبيق مثل هذا الأمر محصور بالرسل، ولاحقًا بالرهبان على طريقة مار أنطونيوس الكبير الذي باع كلّ ما له ووزّعه على الفقراء، وذهب إلى الصحراء. ولكن مثل هذه القراءة هي مبتورة وخارج الإطار التاريخيّ الحقيقيّ للنصّ؛ فنحن نعلم جيّدًا أنّه لم يكن رهبان في أيّام يسوع، وأن المسيحيّين الأوائل الذين حقّقوا هذه العلامة القويّة، لم يكونوا كلّهم رسلاً، ولم تكن الحياة الرهبانيّة قد بدأت بينهم، بل كانوا أناسًا عاديّين، أصحاب عائلات يعيشون بين الناس العاديّين، كما يخبرنا بذلك أعمال الرسل، مؤكّدًا أنّه "كان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة، ولم يكن أحد يقول عن شيء يملكه أنّه خاصّ به، بل كان كلّ شيء لهم مشتركًا...، فما كان فيهم محتاج، لأنّ جميع الذين كانوا يملكون حقولاً أو بيوتًا، كانوا يبيعونها ويأتون بثمن المبيعات، ويلقونه عند أقدام الرسل، فيعطى كلّ مؤمن على قدر حاجته" (أع ٤: ٣٢–٣٥)[٣].

لا تقوم الوصيّة الأولى على بيع المقتنيات وتوزيع ثمنها على الفقراء، وهذا ما سيؤكّده بطرس لحننيا وسفيرة اللذين باعَا حقلهما وأرادا خداع نفَسيهما، والرسل، والله: "أمَا كان الحقل باقيًا لك لو استبقيته؟ وبعد أن بعته، أمَا بقي ثمنه رهن سلطانك؟ ... أنت لم تكذب على الناس بل على الله!" (أع ٥: ٢–٤). الموضوع المطروح إذًا هو الكذب على الذات وعلى الله؛ فالإنسان قد يخدع نفسه بأنّه يحقّق الوصايا لأنّه "آدميّ" ولا يؤذي أحدًا، ويؤدّي العبادة الطقسيّة والتقويّة لله. ولكن هناك إله آخر يعبّر عن الآلهة الأخرى المزيّفة كلّها، التي تتخفّى وراء التقوى والآدميّة. هذا الإله سمّاه كذا المسيح نفسه عندما قال: "لا يقدر أحد أن يعبد ربّين، فإمّا يبغض الواحد ويحبّ الآخر، أو يلازم الواحد ويرذل الآخر. لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال" (مت ٦: ٢٤). ليس إذًا من وصيّة إلزاميّة لبيع المقتنيات،

(٣) ومن بين هؤلاء برنابا (رج آ ٣٦).

بل هي وسيلة فريدة ووحيدة للتأكّد من تحقيق الوصايا، لأنّ الذي يؤمن بأنّ الله واحد ولا إله غيره، وبأنّه الحبّ الخالص، والعناية الأوّليّة الدائمة، ومصدر كلّ خلاص، وهذا هو المعنى العمليّ لاسم الله "يهوه"، أي الموجود والحاضر في التاريخ، والذي يدبّر...، هذا المؤمن يستطيع ولو لمرّة واحدة أن يختبر كلّ هذا ويؤكّد إيمانه العمليّ والفعليّ به: ولكنّ هذا الأمر مستحيل إذا بقي افتراضًا؛ لا وسيلة أخرى سوى أن يبيع كلّ شيء ليحصل على الكنز المخبّأ في ذاك الحقل.

جاء الرجل إلى يسوع يطلب ما ليس عنده: الحياة الأبديّة، والسعادة، والخير الأوحد. ومع أنّه كان يعمل أشياء كثيرة، ويحقّق الكثير من الوصايا، فقد كانت الحياة تنقصه، فجاء يستزيد وصيّة جديدة وعملاً جديدًا لعلّه يحصل على ما ينقصه. وجواب المسيح لم يكن ليخذله، لأنّ "واحدة وحيدة كانت تنقصه، وواحد وحيد، أي الـ "أنا هو" لم يكن سيّدًا وحيدًا على حياته؛ جاء ساجدًا ليسوع كأنّه الله، ولكنّه لم يستطع أن يسمع له ولا لمن أرسله، فعاد "حزينًا" لأنّه فضّل الخيرات الكثيرة التي لم تعطه السعادة والحياة والاكتفاء والملء، على "الخير الأوحد" الذي يحتاجه حقًّا. جاء معبّرًا عن "قلق" مشروع ويستحقّ التقدير: القلق الوجوديّ الذي لا تملأه ولا تكفيه كلّ خيرات الأرض ومشاغلها، ولكنّه لم يستطع أن يحقّق الوصيّة الوحيدة الضروريّة ليمتلئ قلبه من الخير الحقيقيّ، فعاد حزينًا لأنّه كان صاحب مقتنيات كثيرة. يذكّرني هذا بما قاله الربّ لمرتا، وقد كان يحبّها مثل مريم ولعازر: "مرتا، مرتا، أنت مهتمّة بأمور كثيرة، وتضطربين! إنّما المطلوب واحد! فمريم اختارت النصيب الأفضل، ولن يُنزع منها" (لو ١٠: ٤١).

الموضوع الأخير الذي نتوقّف عنده هو دعوة يسوع للرجل إلى اتّباعه، بعد أن يحقّق الوصيّة الأولى والأعظم. هذا الموضوع مهمّ جدًّا لأنّه يشكّل الدعوة إلى الحياة الأبديّة التي كان يسوع قد بدأ المسير إلى أورشليم لتحقيقها

وإعطائها لمن يتبعونه. الحياة الأبديّة التي يطلبها ذاك الرجل، سينالها لا في السماء وحسب، بل منذ اللحظة التي يقرّر فيها اتّباع من سيعطي هذه الحياة. أمّا تفضيله للخيرات الكثيرة، فقد تركته حزينًا.

لا نعلم ماذا حصل لهذا الرجل لاحقًا، وقد يبدو هذا الإنجيل تعبيرًا عن فشل المسيح في اجتذاب الرجل إلى اتّباعه في تحقيق الوصيّة العظمى، ولكن نعرف بدون شكّ أنّ حياة هذا الرجل بعد لقائه بالمسيح لم تعد أبدًا كما كانت قبل هذا اللقاء؛ فالرجل كان صادقًا في الرغبة بميراث الحياة، وهو، وإن فشل في التخلّي عن مقتنياته، ولكنّه استنار بدون شكّ في ما يتعلّق بحقيقته الإيمانيّة والوجوديّة؛ فإذا افترضنا أنّه إنسان صادق في رغبته في الصلاح، فقد حصل من المسيح على نعمة كبيرة، ألا وهي أنّه صار يعرف أنّه لا يحبّ الله كما كان يعتقد، ولا يحبّ القريب كما كان يدّعي، ولا يحفظ الوصايا كما كان متأكّدًا. لقد فقد الحماس الذي دفعه إلى المسيح، ومضى حزينًا، ولكنّ هذا الحزن قد يدفعه إلى التوبة.

٣- خلاصة لاهوتيّة، محبّة الله أساس محبّة القريب

قد يبدو أنّ هذا النصّ يندرج، في ما يندرج، بضرورة مساعدة الفقراء، وبالأحرى بيع كلّ المقتنيات لأجل مساعدتهم، تحقيقًا للوصايا، وبالأخّص ما يتعلّق منها بمحبّة القريب. قد يمكن استخلاص مثل هذه العبرة من هذا النصّ، ولكن فقط كنتيجة وليس كأساس. أساس الموضوع هنا هو حاجة الإنسان إلى الحياة الأبديّة، وهذا ما لا يحقّقه تقديم الحسنات للفقراء، وإن كثُرَت؛ "فالفقراء معكم في كلّ حين"؛ هذا ما أجاب به الربّ يهوذا الذي كان يأسف لإسراف مريم بطيب قيمته ثلاث مائة دينار سكبته على رجلي يسوع الربّ. الأساس هو محبّة الله النابعة من اختبار حبّ الله للإنسان، وبالتالي إسناد الحياة البشريّة على هذا الحبّ وحده، الذي لا يمكن إشراك أيّ حبّ آخر معه، ولا الاستناد إلى أيّ ضمانة أخرى غير ضمانة عنايته.

إنّ محبّة الفقراء وأيّ قريب تنبع من محبّة الله؛ فليس البخل إلاّ من الخوف على الغد وظلم الدهر، وليس من خوف إلاّ لدى الذي لا يعرف الله ولا يؤمن بعنايته الأبويّة. البخيل الذي لا يحسن للقريب أو الفقير هو قبل كلّ شيء إنسان لا إيمان عنده، مهما بلغت تقواه وآدميّته. ليس البخيل شرّيرًا بل خائفًا، وهكذا الأنانيّ والطمّاع وظالم اليتيم والأرملة...، إنّهم ضحايا عدم الإيمان بالوصيّة الأولى أو بالأحرى بكلمة الحياة الأولى، كما يسمّيها التقليد البيبليّ، وليس من شفاء من هذه الخدعة، وليس من سبيل إلى هذا الإيمان الواقعيّ والوجوديّ، إلاّ بهذا الاختبار ولو لمرّة واحدة: "إذهب وبع كلّ ما لك وأعطه للفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني". إذهبوا وبيعوا كلّ ما لكم، "ولا تهتمّوا إذًا وتقولوا: ماذا نأكل، أو ماذا نشرب، أو ماذا نلبس؟ فهذا كلّه يسعى إليه غير المؤمنين، وأبوكم السماويّ يعلم أنّكم تحتاجون هذا كلّه. أطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرّه، وذلك كلّه يزاد لكم" (مت ٦: ٣١-٣٣). "وألحقَّ أقول لكم: ما مِنْ أحدٍ ترك، مِنْ أجلي ومِنْ أجلِ الإنجيل، بيتًا، أو إخوةً، أو أخواتٍ، أو أمًّا، أو أبًا، أو أولادًا، أو حقولاً، إلاَّ ويأخذُ مئة ضَعْفٍ، الآن في هذا الزمان، بيوتًا، وإخوةً، وَأخواتٍ، وأمَّهَاتٍ، وأولادًا، وحقولاً، مع اضطهادات، وفي الدهرِ الآتي حياةً أبديّة" (مر ١٠: ٢٩-٣٠).